الأدب والتاريخ

٣ ـ الرافعي

بقلم تلميذه وصديقه

الأستاذ محمد سعيد العريان

تتمة

إيمانه :

والرافعي رجل مؤمن إيمانَ فكرٍ وعقيدة ، تُشرق على قلبه وعقله حقائقُ هذا الدين ، فهي كأنما تأتيه تلتمس في كتابته ونثره حياةً تكون بها في الناس معنى يقدرون على فهمه ، إذ لا يستطيعون أن يفهموه بأنفسهم ، فمن ثم تراه حين يكتب عن الدين يتدفّق تدفُّقَ البحر ، وتتدافع معانيه تدافع الموج ، وتزدحم أفكاره ازدحام اللُّجة ؛ ومن هنا تغمض معانيه على بعض من لم تشرق حقائق هذا الدين على روحه وفكره

وما سَهلٌ أن تجد كاتباً غير الرافعي يكتب بهذا الأسلوب في هذه المعاني ؛ فانك لترى إيمان أكثرِ من تعرف ، فكرةً يستبدّ بها العقلُ المتقلب ، فهو إيمانٌ متقلقل يتنازعه الشك ، لا يأخذ ولا يدع إلا بحذر ؛ أو تراه إيمان عقيدةٍ موروثة تستبدّ بصاحبها استبداد الجهل والتقليد ، فهو إيمان جامدٌ ، لا يأخذ ولا يدع إلا ما أُريدَ على أن يأخذ وأن يدع . وقلما تجد غير هذين من يؤمن إيمان الفكر والعقيدة معاً ؛ ولو قد وُجد من يؤمن هذا الإيمان ، لرأيتَ الاسلام ينبعث اليوم كأوّله ، ولعادت المعجزة الاسلامية تكتب فصلاً جديداً في تاريخ الانسانية

والرافعي بإيمانه ذاك ينقاد للمقدور انقياد الطاعة ، واثقاً أن لامفرّ للانسان مما قُدِر عليه ؛ فلا تراه يتبرّم أو يتسخط لشيء يناله ، وتسمعه يقول : « جئنا إلى هذه الحياة غير مخيرين ، ونذهب غير مخيرين ، إن طوعاً وإن كرهاً ؛ فمدّ يدك بالرضى والمتابعة للاقدار أو انزعها إن شئت ، فانك على الطاعة ما أنت على الكره ، وعلى الرضى ما أنت على الغضب ؛ ولن تعرف في مذاهب القدر ، إذا أنت أقبلت أو أدبرت أي وجهيك هو الوجه ؛ فقد تكون مقبلاً والمنفعة من ورائك ، أو مدبراً والمنفعة أمامك ، والقدر مع ذلك يرمي بك في الجهتين أيهما شاء . وحريٌّ بمن يوقن أنه لم يولد بذاته ، ألا يشك في أنه لم يولد لذاته ، وإنما هي الغاية المقدورة المتعينة ، فلا الخلق يتركونك لنفسك ، ولا الخالق تاركٌ نفسك لك ... » فمن ثم ترى الرافعي دائماً يُحسن الظنّ بالغد ويراه خير أيامه ، فهو يحاول أن يجعل من كل ألمٍ يناله لذّة يُشعر بها نفسَه ، ومن كل قادحةٍ تنزل به خيراً يترقبه ويهيىء له ، وهو يفصح عن ذلك المعنى في مقالاته : سموّ الفقر ، وحديث قطّين ، وبين خروفين ، والانتحار ، وكتاب المساكين ، أدقّ إفصاح وأبلغه

ولعل أحداً لا يعرف أن الرافعي لا يرى في تلك العلة التي أودت بسمعه وهو غلامٌ بعد ، إلا نعمةً هيأته لهذا النبوغ العقلي الذي عُلي به في تاريخ الأدب فصلاً لم يكتب مثله في العربية منذ قرون . ولاشيء غير الايمان بحكمة القدَر وقانون التعويض ، يجعل الانسان أقوى على مكافحة أحداث الزمن ، فلا تأخذ منه النوازلُ بقدر ما تعطيه . . .

حياته الخاصة :

وبعد ، فأنا قد رأيت الرافعي يكتب ، وجالسته وهو يفكر ، وجلستُ اليه ليملي عليّ ، وصحبتُه في غدواته وروحاته ، وأشركني في مطالعاته ، وأخذ مني وأعطاني ؛ فمن حقّ العربية عليّ أن أصف بعض ما أستطيع مما رأيت

وحياة الرافعي بسيطة كل البساطة ؛ فهو في أشيائه بعيد كل البعد عن التأنق ، ولا يعتدّ بالعرف اعتداداً كبيراً . تراه في الديوان ، وفي البيت ، وفي الشارع ، وفي القهوة — رجُلاً كبعض من تعرف . ولو أنك ذهبت اليه في الديوان ، ورأيته جالساً إلى مكتبه ، يوقّع على هذه الورقة ، ويراجع تلك الحسبة ، ويحادث الناس ويحادثونه . . . لشككت أن يكون هذا هو الرافعي ؛ وقد يميّز مكتبه عن مكاتب غيره من الموظفين بضع صحف مركومة إلى جانب ، أو كتابٌ جديد مستند إلى كتاب ، على أنه في عمله معروف بشدّته وعنفوانه ، وكثرة دلاله أيضا ...!

وفي البيت قلما تجد الرافعي إلا جالساً إلى مكتبه مطالباً

أو كاتباً ، وتكاد غرفة كُتُبه أن تكون كل نصيبه من الدار ... وله صبرٌ عجيب على العمل ؛ فهو حين يجلس للمطالعة قد يظلّ ثماني ساعات لا يزايل موضعه . ولا يسهر خارج الدار عادةً إلا ليلةً أو ليلتين في الأسبوع ، وسائر لياليه عمل مستمر في الكتابة أو المطالعة ؛ ويندر أن يأوي إلى فراشه ليلة قبل الثانية عشرة ؛ وقد كان له عناية كبيرة بالرياضة البدنية إلى عهد قريب ، وهو يحاول معظم تمرينات (سانديو) الرياضي المشهور ؛ وترى صورته قريبة من مكتبه ، إلى جانب صورة محمد عبده ، وجمال الدين ، و . . . وملكة الجمال التركية كريمان هانم خالص . . . !

وهو لأولاده أخ كبير ، لا يدخل أحدهم إليه في مكتبه لأمر إلا داعبه بكلمة عذبة أو إشارة لطيفة ، ولكنه قلما يدخل اليه أحد منهم إلا إذا دعاه ، لتخلو له جلوته

وإذا أراد الرافعي أن يسهر ليلة خارج الدار ؛ فليس إلا في السينما أو في القهوة ، وذهابه إلى السينما عمل أدبيّ أيضاً . . . فهو لا يميل إلا لمشاهدة نوع خاص من الروايات الغنية ، يكون له منها مادةٌ وحي . . .

وحتى في القهوة لا يريد أن يمضي وقته عبثاً ؛ فلا بد من صحف أو كتب أو مجلات ، يمضي بها الوقت ، أو يفرغ منها مع الوقت ؛ فتراه مُكِباً على كتابه ، وفي يمينه قلم يشير به إشاراته ، وفي يساره لفّ الكركرة [1] ، وفمه إلى فمها يبادلها أنفاساً بأنفاس . . . فإذا فرغ من الكتاب ومن الكركرة أقبل على جليسه بحديث عذب ، أكثرُه دعابة وأقلّه هزل . . . وإذا أردت أن تستمع الى الجدّ الهازل ، أو الهزل الجادّ ، فاجلس الى الرافعي لحظات . . .

ولصوته رنّة عذبة ؛ كانت حبسة من مرض فعادت لحناً من الموسيقى ؛ فأنت تميّز صوته بلهجته ورنينه بين مئات الأصوات . ولو سمعت الرافعي خطيباً لما حسبته هو الواقف أمامك يخطب ؛ فإن صوته يعلو ويعلو ، ويمتدّ امتداده في الجهات الأربع ، ثم يعود اليك عَوْدَ الصدى من مكان بعيد ، أرنّ أغنّ مندفعاً متحمّساً ينسيك الزمان والمكان والناس ، فإذا أنت حيث يريد أن ينقلك . ولكنك مع الأسف قلما تسمعه خطيباً ، لأنه يجهد في الخطابة جهداً كبيراً يبلغ منه ؛ فهو لا يخطب إلا حين يدعو نفسه أو يدعوه الموضوع ، فيحمل نفسه على ما يكره . . . فإذا دعوته أنت أنكر على نفسه أنه خطيب ؛ ومن أين له أن يعرف . . . ؟

وفي الرافعي كثير من الاعتداد بالنفس بقدر ما فيه من التواضع ، ولا أحسب أحداً يؤمن باجتماع هاتين الصفتين فيه من جلسة واحدة ، فقد يستقبلك لأول ما يعرفك بدعابة أو نادرة ، أو ينصرف عنك الى كتابه ، أو يقبل عليك في صمت وأنت تتحدث اليه ، أو يأخذ عليك أشتات الحديث فلا يدع لك أن تتكلّم ، فتنصرف وما عرفت إلا لوناً واحداً من أخلاقه . وجلساء الرافعي قليلون على كثرة من يعرفهم ويعرفونه

كيف يكتب ؟

وهو حين يهم أن يكتب ، يختار موضوعه ، ثم يتركه للفكر يعمل فيه عمله ، وللواعية الباطنة أن تهيّئ له مادته ، ويدعه كذلك وقتاما ، يطول أو يقصر ، يقيّد في أثنائه خواطره ؛ لا تكاد تفلت منه خاطرة ؛ وهو في ذلك يستمد من كل شيء مادّة وَحْي ، فكأن في الموجود الذي يراه صوتاً يسمعه ، وكأن لما يسمعه لوناً يراه ، وكأن في كل شيء شيئاً زائداً على حقيقته ، على عليه معنى أو رأياً أو فكرة

فإذا اجتمع له من هذه الخواطر قدر كاف ، يأخذ في ترتيبها معنى الى معنى وجملة الى جملة ؛ وهذه هي الخطوط من هيكل المقالة

ثم هو يعود إلى هذه الخواطر المرتّبة ، ينظر فيها ، ويزاوج بينها ، ويكشف عما وراءها من معان جديدة وفكر جديد ؛ ولا يزال هكذا يزاوج ويستولد ، ويستنتج من كل معنى معنى ، وينفلق له عن كل رأي رأي ، حتى تستوي له المقالة فكرةً تامة بعضُها من بعض ، فيكتبها

ولا تراه حين يكتب أو يملي ينظر إلى أصول المقالة بقدر ما ينظر في أعماق فكره الى ما يتّصل بمعنى ما يكتب ؛ فقد يكون المُمْلَى منه صفحة أو صفحتين ، فيُملي صفحاتٍ وصفحات

ومذهبه في الكتابة إعطاء العربية أكبر قسط من المعاني ؛ فهو لا يكتب الكتابة الصحافية السوقية ، لأن الهدف الذي يرمي اليه هو أن يضيف ثروة جديدة الى اللغة . ولن تجد كاتباً

(١) الكركرة : النارجيلة (الشيشة) كما يسميها الرافعي

غير الرافعي يجهد جهده فيما يكتب فلا يحاول مرة أن يسخر من قرائه أو يُشَمِّر عليهم ليملأ فراغاً يريد أن يملأ

وميزة أخرى تراها في كتابة الرافعي ، هي أنه لا ينحرف مرة واحدة عن مذهبه في المادة والموضوع ، فهو هو منذ كان الى اليوم ، لم يرجع عن رأي رآه ، أو يناقض نفسه في منهج ابتدعه ، وهذا بعض أسرار الايمان في هذا الرجل الذي لم يغالط نفسه قط

وله فلسفة خاصة به ، تعرف فيها طابعه وخلقه ومزاجه ، على حين ترى أكثر فلسفة المتفلسفين من أدبائنا مزقاً مرقعة من آراء فلان وفلان . . . وإني لأشهد أن هؤلاء أكبر من كل فيلسوف في الأرض ، لأنهم وعوا في رءوسهم آراء كل فلاسفة الأرض . . . ثم لم يزيدوا . . . !

وحظ الرافعي من لغة العامة كحظه من الفرنسية ... فأكثر لغته من الكتب ، وقد استغنى بالاطلاع عن الرواية ، وبالقراءة عن المدارسة والاستماع ؛ وهو مع ذلك قد يصنع أغاني شعبية بديعة ، بالغة الغاية في بلاغة العامية ، من دون أن ينحرف في ذلك عن أسلوبه في البيان العربي وطريقته في توليد المعاني ؛ ولعل قراء (الرسالة) لم يزالوا يذكرون له « أغنية الرجال ! » وتراه إذ يحاول أن يصنع شيئاً من ذلك يرجع إليّ ليسألني عن كلمة أو تعبير مما يتعلق العامة ؛ فأقوم حينئذ منه مقام قاموس العامية ..

وهو مع ذلك لا يرى أكثر ما تكتب الصحف إلا عامية راقية . . . فهو يشكو دائماً الجوّ العامي الذي يحوطه ؛ فكيف به لو كان يسمع لغو الناس . . . ؟ ومن ثمّ لا يهم الرافعي أن يكتب إلا حاول جاهداً أن يتخلص من هذا الجوّ الذي كان فيه ، فيرجع إلى بعض كتب العربية يقرأ منها صفحات كما تتفق ، ليعيش لحظة قبل الكتابة في بيئة عربية فصيحة اللسان . وخير ما يقرأ في هذا الباب كتابات الجاحظ وابن المقفع . وأحبّ الكتب اليه من بعد ، كتاب الأغاني لأبي الفرج

ولكتابة الرافعي جرس موسيقي خاص تتميز به ، حتى ما يملى على عجل بلا إعداد ولا توليد ؛ وكثيراً ما يُملى بلا إعداد صفحات وصفحات ، وقد أملى عليّ مرة مقالاً طويلاً في الرد على بعض الأدباء ، استغرق تسعة أعمدة من صحيفة يومية ، على حين لم يستغرق إملاؤه ساعات ؛ ولعل تعبي في كتابته كان أكثر من تعبه في إملائه . . . !

والرافعي على ما يبدع في كتابته ، لا يرى ما كتبه يرضيه بعد الفراغ منه بساعات ، فهو دائماً يطلب الأعلى ؛ وهو نوع من التواضع ونوع من الطموح في وقت معاً . . . !

ويُتهم الرافعي بالغموض أحياناً ؛ وليس ثمة غموض فيما يكتب إلا عند من لم يتزوّد من الأدب الصحيح ، أو يتعوّد قراءة أدب الرافعي ؛ على أن كتابته في مجموعها لا تصل إلى نفس قارئها إلا أن يقرأها قراءة الشعر ، بعقله وروحه ، لا قراءة القصص والروايات ، يفتش بعينيه بين السطور عن معنى يسليه ، أو حادثة يُزجي بها الفراغ . . . ونصيحتي إلى الذين يطلبون التسلية في الأدب ، ألا يقرءوا كتب الرافعي ، فانها لن تجدي عليهم شيئاً ...!

وقد يطلب إليه الكثير من ناشئة الأدب أن يجعل أدبه أهون مما هو أو أقلّ دسما ، فيأبى أن ينزل إلى ذلك ؛ ومذهبه أن يحاول جذبَ الجمهور إلى أعلى ، بدل أن يتدلّى هو إلى الجمهور ، وأن يكتب ما يُرضي الفن لا ما يرضي الناس . على أنه لو أراد الرافعي أن ينزل لما استطاع أن ينزل إلا أن يصير شيئاً غير الرافعي لأنه على مقدار عمق الفكرة ، يكون عمق الصورة اللغوية التي تتأدّى بها ، ولن يستطيع كاتب من الكُتاب — فيما أرى — أن يرضي الفن ويرضي الجمهور في وقت واحد ، حتى لو كان يكتب بلغة العامة ، فان الكتابة لغةٌ وفكر ، أفتراه إن كتب بلُغة العامة ، يكتب أيضاً بأفكار العامة . . . ؟

وقد أخذ الرافعي منذ أكثر من عام يكتب في (الرسالة) نوعاً أحسبه جديداً في الأدب العربي ، جَمَعَ إلى الرافعي طائفة من القراء لم يكونوا يقرؤون له ، وعرّفه إلى الذين لم يكونوا يعرفونه إلا من خلال ما يكتب عنه خصومه . ولا أدلّ على قيمة هذه المقالات ، من ترجمة بعضها إلى غير العربية ، على ما في ترجمة كتابة الرافعي مَن عنف ومشقة !

وأذكر أن بعض المستشرقين الألمان يُعنى بوضع كتاب بالانجليزية عن (زعماء الأدب العربي الحديث) بمعاونة الأستاذ طاهر الجبري المغربي ، وقد وضع الجزء الأول منه عن خمسة من

كبار كتابنا ، فلما قرأ مقالات الأستاذ الرافعي في (الرسالة) ، كتب اليه منذ قريب رسالة طويلة يثني عليه ثناء بالغاً ، ويعده بأن يصحح أغلاطه في الجزء الثاني من الكتاب . . . . !

الرافعي القصصي :

لم يكن الأستاذ الرافعي معروفاً بكتابة القصة ، حتى جاءت قصصه في (الرسالة) برهاناً على نوع جديد من عبقريته ، وهو يروي أكثرها عن السلف من الأئمة والخلفاء ، فما منزلة هذه القصص من الحقائق التاريخية ؟ . . . هذا سؤال أحسب الكثير من القراء ينتظر الجواب عنه ؛ ذلك لأن كثيراً منهم لا يرى للرافعي فيها بداً إلا أن يُجَلِّيها لوقتها . وأيّ بدٍ هذه . . . ؟

وطريقة الرافعي في كتابة هذا القصص غريبة ، فمعظمه لا أساس له من الواقع ، أو أن له أساساً لا يلهم هذه القصص الطوال البديعة في خيالها وموضوعها وفنها ، وانما هو يفكر في موضوع الحكمة التي يريد أن يلقيها على ألسنة التاريخ — على طريقته في تأليف مقالاته — فاذا انتهى إلى ذلك تناول كتاباً من كتب التراجم الكثيرة بين يديه ، فيقرأ منها ما يتفق حتى يعثر باسم ما ، فيدرس تاريخه ، وبيئته ، وخلائه ، ومجالسه ، ثم يصنع من ذلك قصة لا تزيد على سطور ، يجعلها كالبدء والختام لموضوعه الذي أعدّه من قبل ، وإنه ليُلهم أحياناً ويوفق في ذلك توفيقاً عجيباً ، حتى تأتي القصة وكأنها بنت التاريخ ، وما للتاريخ فيها إلا سطور ، أو إلا أسماء الرجال . . . .

على أن وجه الابداع في ذلك ، هو قدرة الرافعي على أن يعيش بخياله في كل عصر من عصور التاريخ ، فيحسّ احساسه ويتكلم بلسان أهله ، حتى لا يشكّ من يقرؤها في أنها كلها صحيحة من الألف إلى الياء . . . .

فليزدنا الرافعي من هذا الباب ليُعرِّف دعاةَ الجديد أي رجل هو من رجالات العربية ، وما أشك أن هذا النوع من الأدب سيكون له فصلٌ بعنوانه في تاريخ الأدب الحديث

أراني قد أطلت وما استوفيت ، على أني ما قصدت إلى دراسة الرافعي ، وإنما هو المام سريع ببعض جوانبه ، على مقدار ما يتهيأ في الذاكرة من الخواطر لوقتها ، فمعذرة ، والى اللقاء بعد حمام . . . ؟

(ملطا) محمد سعيد العريان

دراسات في الأدب الانكليزي

٢ – وليم وردزورث

William Wordsworth

بقلم جريس القسوس

المتاخمون — The Borderers

وعلى أثر هذه الهبة أخلد ورد زورث إلى السكينة في بيته الجديد في « راسيدوم لودج » في مقاطعة دور تشاير منقطعاً عن العالم وعاكفاً على المطالعة والانتاج ، وفي بيته هذا نظم مأساته الشعرية المشهورة « المتاخمون » ، وقد ضمنها خلاصة عقيدته التي اقتبسها من « وليم قودوِنْ » وفيها يدعو الى حل الشرائع والسنن الاجتماعية وهدم الفروق بين الطبقات البشرية والمناداة بتأسيس هيئة اجتماعية جديدة شعارها المساواة والديمقراطية ، أما تأسيسها فعن طريق الدعاية والجدل ، لا عن طريق العنف والشدة كما كان يؤمن في بدء حياته . ولعل هذه الفلسفة أقرب ما تكون لمبدأ الشيوعية الجديدة . بيد أن ورد زورث لم يطل تمسكه بهذه العقيدة بل نبذها حالما تحقق صعوبة نجاحها وتنفيذها

كولردج وورد زورث

كان كولردج الشاعر الشهير يقطن في بيت قريب من مسكن شاعرنا ، فلما علم بوجود ناظم « المقطعات الوصفية » في جواره رأى أن يزوره . ولما التقيا كان أول ما فعلاه أن تبادلا قراءة منظوماتهما وخصوصاً « الكوخ المهدم » أو « مرغريت » وقد ضُمّتْ مؤخراً إلى قصيدته المشهورة « النزهة The Excursion » والمتاخمون The Borderers لوردزورث ومأساة أوساريا Osaria لكولردج

ولقد كتبت دوروثي رسالة إلى أحد أصدقائها تقول فيها : « لقد كانت خسارتك عظيمة في عدم مشاهدتك كولردج . إنه لرجل عظيم حقاً ، ولا ينطق إلاّ بحديث طلي عذب يشفّ عن سموّ روحه وقوة إدراكه ، وإنه لأسود الحاجب صلت الجبين »